

الدرس الثالث عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب الكبائر :

باب الجهالة

وقول الله تعالى ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩]

قال رحمه الله تعالى: «بابُ الجهالة» ؛ الجهالةُ : تعني عدم العلم وعدم الفقه في دين الله عزّ وجلّ ، والانصراف عن العلم والتعلّم إلى الاستغراق في أمورِ الدُّنيا وتوافهها ، وأن يمضي الإنسان على هذه الجهالة؛ الجهالة بدين الله عزّ وجلّ الذي خلقه الله جلّ وعلا لأجله وأوجده لتحقيقه. وهذا من أعظم المصائب أن يعيش الإنسان حياته إلى أن يموت وهو على جهالةٍ بالدين الذي حُلِقَ لأجله؛ فإنَّ العبد لم يُخلَقْ للدُّنيا التي هو مُكبٌّ عليها، وإنما حُلِقَ للدين، وحُلِقَ لطاعة ربِّ العالمين، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]

ومن أعظم المصائب التي يُبلى بها العبد: أن يعيش حياته على جهالةٍ بالدين الذي خلقه الله سبحانه وتعالى لأجله وأوجده لتحقيقه، ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ ؛ لماذا؟ ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ؛ أي أتمّ أهل جهالة بالدين الذي خلقهم الله سبحانه وتعالى لأجله وأوجدتهم لتحقيقه ، ففهموا في أمور الدنيا، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧] ؛ فلهم عناية بالدنيا وهم مُكبُّون عليها وهي أكبر همهم ومبلغ علمهم، أمّا دينهم الذي خلقهم الله سبحانه وتعالى لأجله وأوجدتهم لتحقيقه فهم أهلُ جهالةٍ فيه.

قال رحمه الله :

٧٥ - وعن ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهما وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين)). .

ثم أوردَ هذا الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)) ؛ أي: أن مَنْ اشتغل بالفقه في الدين تعلّمًا وتفقُّهًا وتبصُّرًا في دين الله فهذا من علاماتِ أن الله سبحانه وتعالى أراد به خيرًا. ومفهومُ المخالفة لهذا الحديث: أن مَنْ كان من أهل الجهالة وعدم التفقُّه في دين الله سبحانه وتعالى فإنَّ هذا من علامات عدم إرادة الخير به، وذلك أنَّ الخير لا يُنال إلا بتعلُّمه والتبصُّر فيه ، وأمَّا مَنْ لم يتعلَّم الخير فكيف يفعله وهو لم يتعلَّمه؟! وفاقد الشيء لا يعطيه، ولهذا كان العلم والتعلُّم بابًا لا يوصل إلى الخير إلا من خلاله، ومَنْ أراد الله سبحانه وتعالى به خيرًا ففقهه في دينه تفقُّهًا مثمرًا للعمل والطاعة والتقرُّب لله سبحانه وتعالى. ومن علامات عدم إرادة الخير بالعباد : أن يكون منصرفًا عن التعلُّم مستغرقًا في الجهالة، ويترتّب على استغراق الإنسان في الجهالة: تضييعه للعمل والعبادة التي خلقه الله سبحانه وتعالى لأجلها وأوجده لتحقيقها.

قال رحمه الله :

٧٦ - وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه : «أن المرتاب هو الذي يقول إذا سأله الملكان: هاه هاه، لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته».

قال: وفي حديث البراء ابن عازب رضي الله عنه: «أنَّ المرتاب» أي: عند سؤال الملكين في القبر «هو الذي يقول إذا سأله الملكان: هاه هاه لا أدري، سمعتُ النَّاسَ يقولون شيئاً فقلته» ؛ وهذا أيضًا مما يبيِّن لنا خطورة الجهالة في دين الله سبحانه وتعالى، وأنَّ مَنْ كان كذلك فإنَّه لا يوفِّق عند سؤال الملكين ، فإذا سأله الملكان يقول هذه الكلمة: «هاه هاه لا أدري»، قول المرتاب «لا أدري» هذه هي الجهالة بدين الله سبحانه وتعالى، يسألانه: «مَنْ ربُّك؟ ما دينك؟ مَنْ نبيُّك؟» فيكون جوابه على ذلك: «لا أدري».

ولهذا العلماء يوصون كثيرًا وينصحون العوام ويؤكِّدون عليهم أن يُعْنَوْا بالأصول الثلاثة التي هي: مَنْ ربُّك؟ مَنْ نبيُّك؟ ما دينك؟ هذه أوَّل ما يموت الإنسان -ولا يدري متى يموت- إذا أُدْخِلَ في القبر أتاه ملكان وسألاه ثلاثة أسئلة: مَنْ ربُّك؟ ما دينك؟ مَنْ نبيُّك؟. ولهذا العلماء رحمهم الله يؤكِّدون تأكيدًا عظيمًا على العناية بهذه الأصول الثلاثة، تعلُّمًا لها وتبصُّرًا فيها وتحقيقًا لها ؛ حتى يكون الإنسان بإذن الله سبحانه وتعالى من أهل الثبات عند سؤال الملكين، قال الله جلَّ وعلا: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] . وقد كتب الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله رسالة جميلة جدًا ومختصرة بعنوان: «الأصول الثلاثة» ، فمن المهمَّ جدًّا أن تُقرأ هذه الرسالة، وأن يُستفادَ منها، فإنَّها مشتملة على خيرٍ عظيمٍ ونفعٍ كبيرٍ.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ القِحَةِ

وقول الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٠٨] .

قال رحمه الله تعالى: «بابُ القِحَةِ» ؛ القِحَةُ: من الوقاحة، وهي قِلَّةُ الحياءِ وقِلَّةُ الأدب، فهذه يُقال لها «قِحَةٌ» من الوقاحة التي هي قِلَّةُ الأدب. والإنسان -والعياذُ بالله- إذا كان قليل الأدب قليل الحياء، فإنه يفعل من الشُّرورِ ما يفعل ولا يُبالي ؛ لأنَّه لا حيَاءَ عنده، لا من الله ولا من العباد، ولهذا إذا وُجِدَ في الإنسان قِلَّةُ الحياءِ وقِلَّةُ الأدب وُجِدَت القِحَةُ في الإنسان وُجِدَ الشرُّ؛ لأنَّ الحياءَ يُعَدُّ رادِعًا للإنسان، يمنعه حياؤه من الأعمال المشينة، من التصرفات القبيحة، من الأمور المنكرة، يستحي، فإذا نُزِعَ منه الحياءُ -عياذًا بالله- فإنه يقع في كلِّ شرٍّ، ولهذا كما جاء في الحديث: ((الحياءُ كُلُّهُ خَيْرٌ))، ((الحياءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ))، وإذا نُزِعَ الحياءُ أتت الشُّرورُ بأنواعها. ومن نعمةِ الله سبحانه وتعالى على عبده أن يوفِّقه لوجود الحياءِ في قلبه، والحياءُ عمل من أعمال القلوب يعين العبد على التَّحَلِّي بالفضائل والتَّخَلِّي عن الرذائل . وهذا معنى أنَّ ((الحياءُ خَيْرٌ كُلُّهُ)).

أورد قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] ؛ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: بأعمالهم المشينة وأمورهم المنكرة ؛ يستخفون منهم إمَّا هيبة، أو خوفًا، أو خشيةً مثلًا خزيٍ وفضيحة بين النَّاسِ، أو غير ذلك، يستخفون من النَّاسِ بالأعمال المنكرة.

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ربِّ العالمين سبحانه وتعالى ، مع أنَّ الحياء من الله جلَّ وعلا هو أوجبُّ الحياءِ وأفضله ، قد قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: ((استحيوا من الله حقَّ الحياءِ)) ، فالحياء من الله عزَّ وجلَّ هو أوجبُّ الحياء، وكلُّ حيَاءٍ يُقَدَّرُ في الإنسان من مخلوقين فالله سبحانه وتعالى أحقُّ بما هو أعظم من ذلك، فهو الخالق جلَّ وعلا ، وهو مع العباد ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] ؛ معهم بعلمه وإطلاعه وإحاطته، وأنَّه لا يعزبُ عنه مثقال ذرَّةٍ في السَّمَاوَاتِ ولا في الأرض ، يسمع ويرى جلَّ وعلا ، وأحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا. فالحياء من الله جلَّ وعلا هو أوجبُّ الحياءِ وأفضله.

وعندما يكون الإنسان بهذه الصِّفَةِ يستخفي بذنبه من النَّاسِ ويستخفي بأموره من النَّاسِ، ولا يستخفي من الله، والله معه مطَّلَعٌ عليه لا تخفى عليه منه خافية ؛ فمن كان كذلك هذه من أعظم المصائب ، إذ الواجب على العبد أن يكون حياؤه من الله عزَّ وجلَّ أشدَّ الحياءِ.

قال رحمه الله :

٧٧ - وفي البخاري عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت)).

ثمَّ أورد هذا الحديث عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: ((إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ))؛ وَهَذَا فِيهِ دَلَالَةٌ أَنَّ شَرَائِعَ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعَهُمْ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ مَتَّفِقَةٌ عَلَى أَمْرِ النَّاسِ بِالْحَيَاءِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْحَيَاءِ. جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ دَعَوْا أُمَّهَمُ إِلَى الْحَيَاءِ؛ الْحَيَاءُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْحَيَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَبَيَّنَّا لَهُمْ أَنَّ مَنْزِعَ الْحَيَاءِ لَا يُبَالِي مَا فَعَلَ مِنَ الشَّرِّ.

((إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ))؛ لِأَنَّ مَنْزِعَ الْحَيَاءِ لَا يُبَالِي، الْحَيَاءُ هُوَ الَّذِي يَرُدُّ، هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ، هُوَ الَّذِي يَحْجُزُ، فَإِذَا نُزِعَ الْحَيَاءُ مِنَ الْعَبْدِ وَلَجَّ فِي الْمُنْكَرَاتِ وَدَخَلَ فِي الْمَحْرَمَاتِ وَلَمْ يُبَالِي. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ((فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ))؛ لِأَنَّهُ يَصْبِحُ لَا يُبَالِي فِيمَا يَفْعَلُهُ مِنْ مُنْكَرٍ، وَفِيمَا يَغْشَاهُ مِنْ حَرَامٍ.

قال رحمه الله تعالى :

باب الحرص على المال والشرف

٧٨ - عن كعب رضي الله عنه مرفوعاً: ((ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)) صححه الترمذي.

قال رحمه الله: «بَابُ الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرْفِ»؛ أَي أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَغْرِقُ وَقْتَهُ لَشِدَّةِ حِرْصِهِ فِي تَحْصِيلِ الْمَالِ، أَمَّا إِذَا كَانَ هَذَا الْحِرْصُ عَلَى تَحْصِيلِ الْمَالِ بَغَيْرِ مَبَالَاةٍ مِنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ، طَرِيقٍ مُشْرُوعٍ أَوْ مَمْنُوعٍ، فَهَذِهِ مَصِيبَةٌ عَظِيمَةٌ جَدًّا، وَأَمَّا إِذَا كَانَ يَسْتَغْرِقُ وَقْتَهُ فِي تَحْصِيلِ الْمَالِ مِنْ وَجْهِهِ مُشْرُوعَةٍ غَيْرِ مُحْرَمَةٍ فَمَا لِهَذَا خُلِقَ الْإِنْسَانُ، مَا خُلِقَ لِتَكُونَ حَيَاتِهِ مُسْتَغْرَقَةً فِي تَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِ الْأَمْوَالِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالُ الَّتِي سَيَجْمَعُهَا قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ نَهَايَةُ الْأَمْرِ أَنْ تَخْرُجَ رُوحُهُ مِنْ جَسَدِهِ وَتَصْبِحَ الْأَمْوَالُ تَلْكَ لِلوَرَثَةِ، وَهَذَا جَامِعُ الْأَمْوَالِ يُسَمَّى «الْحَازِنُ وَالْحَافِظُ»، وَمَالُهُ لَيْسَ لَهُ وَإِنَّمَا هُوَ لَوَرَثَتِهِ، وَمَهْمَتُهُ الْقِيَامُ عَلَى جَمْعِهِ وَاكْتِسَابِهِ وَتَحْصِيلِهِ.

وَمَنْ يَجْمَعُونَ الْمَالَ هُمْ عَلَى وَجْهَيْنِ:

١- قَسَمٌ يَجْمَعُ الْمَالَ لِأُمُورٍ يَرِيدُهَا مِنَ الْمَالِ؛ مِنْ شَهَوَاتٍ وَمَلذَّاتٍ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ رُبَّمَا لَا يُبَالِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الشَّهَوَاتُ أَوْ الْمَلذَّاتُ مُحْرَمَاتٍ، فَيَسْتَكْتَرُ مِنَ الْأَمْوَالِ لِتَحْصِيلِ شَهَوَاتِهِ.

٢- وبعضهم يحصل المال للمال ذاته؛ مفتون بالمال، يجمع ولا ينفق، حتى على نفسه لا ينفق! يجمع المال تلو المال وهمه جمع الأموال، ولهذا لا يُخرج حتى حق الله الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى عليه فيه لا يُخرج منه شيئاً، يجمع ويجمع ويكبر سنه وهو يجمع الأموال، ثم التَّهَيُّة تخرج روحه من جسده وتكون هذه الأموال بأيدي الورثة، وبعض الورثة إذا طُلبوا بالتَّفَقَّة والصَّدَقَة عن والدهم وبناء مثلاً بعض المساجد أو بعض الأعمال الخيريَّة من أجل والدهم، بعضهم يقول: هو ما فعل في حياته، نحن الآن نفعل له بعد وفاته؟! فما ينفقون.

ومال الإنسان ليس هذا الذي يجمعه، هذا مال الورثة، ماله هو الذي يقدمه ويبدله، ((مَالُكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ))؛ هذا هو مال الإنسان، وأما بقيَّة المال كلُّه مال الورثة وليس للإنسان منه شيء. والورثة يفوزون بغير المال وليس عليهم غرمه، والمورث يبوء بغرم المال وليس له غنمه، غنم المال للورثة، لكن غرم المال عليه هو؛ لأنه يحاسب عليه لأنه هو من جمع هذا المال، أما الورثة يصلهم المال فيستفيدون منه غنماً وليس عليهم غرم في هذا المال؛ لأنَّ الذي حصَّله مورثهم وليس هم.

والحرص على الشَّرَف: أيضاً أمرٌ مُهْلِك، حرص الإنسان على رئاسة أو على زعامة أو على سلطة أو على إمرة أو غير ذلك من الأمور، وفي الغالب أنَّ هذا الحرص على الشَّرَف وعلى الرِّئاسة لا بدَّ أن يضيع معه أشياء من أمور الدِّين، فيدخل في أمور من المداهنة، ويدخل في أمور من الرِّياء، ويدخل في أمور من مدح نفسه مثلاً بالكذب، وأشياء كثيرة من هذا القبيل من الأمور التي من ضياع الدِّين في سبيل تحصيل الشَّرَف.

وأورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن كعب رضي الله عنه مرفوعاً؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَا ذُبَّانُ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي زَبِيَّةِ غَنَمٍ))؛ ذُبَّانُ جَائِعَانِ وَأُطْلَقَا لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فِي زَبِيَّةِ غَنَمٍ، وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الذَّبَّانَ مِنَ الْغَنَمِ الْحَيَوَانَاتِ الْمَفْتَرَسَةِ، الْأَسَدُ مِثْلًا إِذَا ظَفَرَ بِقَطِيعٍ مِنَ الْغَزْلَانِ يَأْخُذُ مِنْهَا غَزْلًا يَأْكُلُهُ وَيَمْضِي، الذَّبَّانُ مِنَ الْغَنَمِ الْحَيَوَانَاتِ يَأْخُذُ وَيُهْلِكُ الْبَاقِي، كُلٌّ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُهْلِكَ مِنْهَا أَهْلَكَه، فَلَوْ تُرِكَ ذُبَّانُ جَائِعَانِ فِي زَبِيَّةِ غَنَمٍ لَا يَقْتَصِرَانِ عَلَى شَاةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ شَاتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ يَأْكُلَانِهَا حَتَّى يَشْبَعَانِ، بَلْ يَفْسُدَانِ فِي الْغَنَمِ، يَضْرِبُ هَذِهِ وَيَقْتُلُ هَذِهِ، وَيُدْمِي هَذِهِ، يَفْسُدُ إِفْسَادًا، وَهَذَا يَعْتَبَرُ أَلْتَمُ الْحَيَوَانَاتِ الْمَفْتَرَسَةِ وَأَشَدُّهَا شِرَاسَةً وَأَذَى وَعَدْوَانًا. فَانظُرْ هَذَا الْمِثْلَ، وَتَصَوَّرْ أَيْضًا هَذَا الْمِثْلَ حَتَّى تَدْرِكَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ؛ أَنَّ ذُبَّانَ جَائِعِينَ أُرْسِلَا فِي زَبِيَّةِ غَنَمٍ، وَهِيَ مَعْرُوفَانِ بِاللُّؤْمِ وَشَدَّةِ الْإِفْسَادِ مَاذَا سَيَكُونُ شَأْنُ زَبِيَّةِ الْغَنَمِ؟ تَجِدُ أَنَّ أَكْثَرَ مَا فِيهَا مَاتَ أَوْ أُدْمِيَ أَوْ أُضِرَّ بِهِ إِضْرَارًا عَظِيمًا.

قال: ((مَا ذُبَّانُ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي زَبِيَّةِ غَنَمٍ بِأَفْسَادِهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ))؛ معنى ذلك أنَّ حِرْصَ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ مَفْسُدٌ لِدِينِهِ أَكْثَرَ مِنْ إِفْسَادِ الذَّبَّانِ الْجَائِعِينَ إِنْ أُرْسِلَا وَأُطْلَقَا فِي زَبِيَّةِ غَنَمٍ، وَهَذَا تَصَوَّرْ هَذَا الْأَمْرَ يَكُونُ بِتَصَوُّرِ حَالِ هَذَيْنِ الذَّبَّانِ فِي دَخُولِهِمَا لِزَبِيَّةِ غَنَمٍ وَإِفْسَادِهِمَا فِيهَا، فَهَذَا الْإِفْسَادُ لَيْسَ بِأَشَدَّ مِنْ إِفْسَادِ الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصِ عَلَى الشَّرَفِ لِدِينِ الْمَرْءِ.

وهذا الحديث العظيم - وهو في سنن الترمذي - أفرد فيه الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى رسالة جميلة سماها «شرح حديث ما ذئبان جائعان» ، يقول رحمه الله: «فهذا مثلٌ عظيمٌ جدًّا ضربه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفساد دين المسلم بالحرص على المالِ والشَّرَفِ في الدُّنيا، وأنَّ فساد الدِّينِ بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم قد غاب عنها رعاؤها ليلاً ؛ فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها، ومعلومٌ أنَّه لا ينجو من الغنم من إفساد الذَّئبين المذكورين والحالة هذه إلاَّ القليل، فأخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ حرص المرء على المال والشَّرَفِ إفسادٌ لدينه ليس بأقلَّ من إفساد الذَّئبين لهذه الغنم، بل إمَّا أن يكون مساويًا وإمَّا أكثر ؛ يشير إلى أنَّه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المالِ والشَّرَفِ في الدُّنيا إلاَّ القليل، كما أنَّه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذَّئبين المذكورين فيها إلاَّ القليل . فهذا المثل العظيم يتضمَّن غاية التَّحذير من شرِّ الحرصِ على المال والشَّرَفِ في الدُّنيا» اهـ.

الشاهد أنَّ هذا الحديث حديث عظيم الشأن، وفيه نصحٌ بالغ من النبيِّ الكريم عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام، ومن نصحه صلوات الله وسلامه عليه لأُمَّته ضُرب هذه الأمثال الواضحة البيِّنة التي من شأنها أن يدرك المسلم هذه الحقائق الإيمانِيَّة.

بمناسبة ذكر الذَّئبين لا بأس أن أروي طرفةً في هذا الباب؛ من المعروف أنَّ الذَّئب من أئثم الحيوان وأكثره إفسادًا وعدوانًا، وقد جاء في القرآن أنَّ إخوة يوسف لما ألقوا أخاهم في الجُبِّ وأتوا على قميصه بدمٍ كذب قالوا: «أكله الذَّئب»، خصُّوا هذا الحيوان بالذِّكر ، قالوا أكله الذَّئب ووضعوا على قميصه شيء من الدَّمِ وادَّعوا أنَّ الذي أكله الذَّئب، فمن الطَّرَفِ التي تُروى أنَّ رجلاً من المتكلمين قال: إنَّ الذَّئب الذي أكل يوسف اسمه (رَعْمون) فقال له الحاضرین: الذَّئب لم يأكل يوسف، فقال لهم: هذا الاسم اسم الذَّئب الذي لم يأكل يوسف، قالوا: إذا ينبغي أن يكون هذا الاسم لكلِّ الذَّئاب؛ لأنَّها كلُّها لم تأكل يوسف.

قال رحمه الله :

بَابُ الهَلْعِ وَالْجَبَنِ وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [الماعج: ١٩ - ٢٢] .

قال رحمه الله تعالى: «بَابُ الهَلْعِ وَالْجَبَنِ» ؛ هلع الإنسان: هو أمرٌ يقوم في الإنسان فيجمع فيه صنفين من البلاء والشَّرِّ وهما: الجزع والجشع. وهذا المعنى واضح في الآية الآتي ذكرها عند المصنِّف رحمه الله تعالى .
والجبين: هو خور الإنسان وضعف قلبه عن القيام بما أوجبه الله سبحانه وتعالى عليه.

قال: وقول الله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿﴾ [المعارج: ١٩-٢٢] ؛ فقوله ﴿هَلُوعًا﴾ تفسيره ما بعده ، كما قال أهل العلم في كتب التفسير . هلوعًا ما معناه؟ ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿﴾ ؛ فالهلع: هو أن يكون الإنسان بهذا الوصف؛ إن مسّه الشّرّ فهو في غاية الجزع، وإن مسّه الخير فهو منوع شحيح. فالهلع: وصفٌ يجمع أمرين وهما: الجزعُ والشُّحُّ.

قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: لا يعطي ما افترض الله عليه ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ وهذا فيه عظم شأن الصلاة، وأنّ الصلاة معينة للعبد على كلّ خير.

قال رحمه الله :

٧٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((شر ما في الرجل شح هالع؛ وجبن خالع)) رواه أبو داود بسند جيد.

قال: وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((شر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع)) ؛ «شح هالع» من الهلع ، ومرر معنا في الآية ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ .

ف((شر ما في الرجل شح)) ؛ والشح: هو أشدّ البخل ، والبخل: هو منع الإنسان ما أوجب الله عليه في ماله ، وأشدّ ذلك يُسمّى شحًا ، فالشح هو: الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلّها، ولا يُؤدّي أيضًا حقّ الله سبحانه وتعالى في المال، فهذا يُسمّى «شحًا». وإذا كان هذا الشح هالعًا فإنّ صاحبه سيكون منوعًا للخير وأيضًا مستغرقًا في تحصيل هذا المال من أيّ وجه كان، سواءً من حلّه أو من غير حلّه.

و«الجبن الخالع» أي: الجبن الشديد الذي من شدّته يخلع قلب صاحبه ويخلع فؤاده. فمعنى قوله «خالع»: أي من شدّته يخلع فؤاد صاحبه .

فهذا كلّهُ مذمومٌ في العبد، وهو شرّ ما في الرجل أن يكون فيه شح هالع، وأن يكون فيه جبن خالع. وقد صحّ عن النبيّ عليه الصلّاة والسّلام التّعوذ بالله جلّ وعلا من البخل والجبن . والتّعوذ بالله من الجبن والبخل فيه تعوذٌ بالله من هذين الوصفين المجتمعين في هذا الحديث : الشحّ الهالع، والجبن الخالع ؛ فتعوذ منهما بقوله: «اللهمّ إني أعوذُ بك من البخل والجبن».

قال رحمه الله :

٨٠ - ومسلم عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: ((اتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم)).

قال: ومسلم عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: ((اتَّقُوا الشُّحَّ)) أي: اجتنبوه واحذروا منه أشدَّ الحذر؛ لعظم خطره وضرره على صاحبه.

((اتَّقُوا الشُّحَّ)) والشُّحُّ: هو أشدُّ البخل، وإذا وُجِدَ في الإنسان الشُّحُّ فإنه يسعى في تحصيل المال من غير حِلِّه لا يبالي، وأيضاً لا ينفق المال في حِلِّه ولا يؤدِّي حقَّ الله سبحانه وتعالى فيه.

((اتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)) ؛ وهذا الهلاك لمن كان قبلنا بالشُّحِّ هلاكٌ دنيوي وهلاكٌ أخروي. أمَّا الهلاك الدنيوي فمن مثاله: ما جاء في الحديث ((حملهم على أن سفكوا دماءهم)) ؛ هذا هلاك، عندما يقتتلون حتى تُسْفَكَ الدِّماء وتُراق هذا هلاكٌ في الدُّنيا بسبب الشُّحِّ ، تتكالب نفوسهم على الأموال ويشحُّ الواحد منهم بما يجب عليه في هذا المال ويأخذ حقوق الآخرين من شدَّة شحِّه ولا يعيد لهم حقوقهم من شدَّة شحِّه؛ فتقوم المقاتل وتُراق الدِّماء وهذا هلاكٌ دنيوي. أمَّا الهلاك الأخروي بما أعدَّ الله سبحانه وتعالى لهؤلاء يوم القيامة من عقوبة.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ البخل

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ الآية [النساء: ٣٧] ، وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ

حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] .

قال: «بابُ البخل» ؛ البخل : أي في المال بعدم إخراجهِ وإنفاقِ ما أوجب الله سبحانه وتعالى على العبد أن ينفقه وأن يبذله من ماله، فالبخل: هو منع الحقوق الواجبة التي أوجبها الله سبحانه وتعالى على العباد. ولهذا أورد

رحمه الله في هذه التَّرْجِمة قول الله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ فمنع هذا الحق يسمى «ببخلاً» ، وقد

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ؛ ذكرهم بوصفَيْنِ ذمِيمَيْنِ: أَنَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ

بِخْلَاءٌ، يَمْنَعُونَ الْحَقَّ الَّتِي أَوْجَبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِذَلِكَ بَلْ صَارُوا أَيْضًا دُعَاةً إِلَى الْبُخْلِ

﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ؛ فلم يكتفوا أنهم في أنفسهم بخلاء بل زادوا على ذلك أن صاروا أيضًا دُعاةً إلى البخل.

ولماذا من يكون متَّصِفًا بالبخل يدعو إليه؟ هذا مبني على قاعدة معروفة: أنَّ صاحبَ الشَّرِّ لا يريد أن يكون فريدًا فيه وحيدًا فيه لا يُشار إلاَّ إليه عند ذكر هذا الشَّرِّ ، ولهذا يسعى دائمًا أهل الشَّرِّ إلى الدَّعوة إلى الشَّرِّ حتى لا يكون وحيدًا. ولهذا جاء في الأثر عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: «وَدَّتْ الزَّانِيَةُ لَوْ زِنَى النِّسَاءَ جَمِيعًا»، لا تريد أن تكون وحيدة في حِيَّهَا يُشار إليها بأنَّها الفاعلة التَّاركة، فتدعو غيرها من النِّساء حتى يكون من يُشار إليه بهذا الوصف ليس هي وحدها، فهكذا دُعاة الشَّرِّ في كلِّ باب يُجَبُّون أن يستكثروا في مجتمعاتهم من أمثالهم، فالبخيل يودُّ أن يكثر البخلاء من أمثاله وشاكلته. قال: ﴿الَّذِينَ يَخُلُون﴾ أي هم في أنفسهم بخلاء ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

قال رحمه الله تعالى :

٨١ - عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من سيِّدكم يا بني سلِّمة؟)) قلنا: الجد بن قيس على أنا نُبَخِّلُهُ ، قال: ((وأي داءٍ أدوا من البخل! بل سيِّدكم عمرو بن الجموح)). رواه البخاري في الأدب المفرد.

قال: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من سيِّدكم يا بني سلِّمة؟)) وهذا فيه تفقُّد النَّبِيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ للعشائر والقبائل، ومعرفة من على الإمرة فيهم وله السِّيادة، فكان يتفقدهم ويسأل صلوات الله وسلامه عليه فقال: ((من سيِّدكم يا بني سلِّمة؟)).

((قلنا: الجدُّ ابن قيس؛ على أنا نُبَخِّلُهُ)) ؛ قولهم: «على أنا نُبَخِّلُهُ» هذا لا يُعَدُّ من الغيبة المحرَّمة؛ لأنَّ هذا من المقامات التي تسوغ فيه الغيبة، لأنَّ هذا مقام استنصاح لدى ولي الأمر ، وأراد أن يعرف من عليهم؟ وما صفتهم؟ فأخبروه بهذا الوصف الذي يلاحظونه عليه، قالوا: «غير أنا نُبَخِّلُهُ» أي: نعرف فيه شيء من البخل.

فقال النبيُّ: ((وأيُّ داءٍ أدوى من البخل)) وهذا موضع الشاهد للترجمة ؛ ((وأيُّ داءٍ أدوى من البخل؟)) أيُّ مرضٍ أشدَّ من مرض البخل! فالبخل مرض شديد إذا أصيب به الإنسان ، قال ((وأيُّ داءٍ أدوى من البخل؟)) أي: أيُّ مرضٍ أشدَّ من مرض البخل ، وهذا فيه أن البخل مرض وأنه أشدَّ المرض، والمراد هنا: أمراض القلوب. قال: ((وأيُّ داءٍ أدوى من البخل؟ بل سيِّدكم عمرو بن الجموح)).

قال رحمه الله :

باب عقوبة البخل

وقول الله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] .

قال: «باب عقوبة البخل» ؛ البخل عقوبته عظيمة ، لأنَّ البخل إذا وُجد في الإنسان منعه من أداء الحقوق التي افترض الله عليه، ومن ذلك: زكاة المال المفروضة التي افترضها الله عليه يمنعه بخله من أداء حقِّ الله سبحانه وتعالى، مع أنَّ حقَّ الله في المال لا يزيد المال إلاَّ نماءً وخيراً وبركة، ولهذا سُمِّيَ ذلك «زكاة»؛ لأنَّه زكاةٌ للمال ونماءٌ له، فالبخيل هو الذي يمنع الحقوق التي أوجبها الله سبحانه وتعالى عليه؛ ولهذا له يوم القيامة العقوبة الشديدة. ومن ذلك قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: جميع ما بخلوا به يأتون يوم القيامة يحملونه طَوْقًا على أعناقهم وخزياً لهم بين الخلائق، وكلَّ هؤلاء كل واحد منهم يحمل ما بخل به، وأيضاً الظلمة يحملون المظالم على أعناقهم خزياً لهم وفضيحةً يوم القيامة بين الخلائق.

قال رحمه الله :

٨٢ - وفيه: ((لا توعي فيوعي الله عليك)) كما في الحديث الآخر : ((ارضخي يُرضخ لك)) أي وسعي يوسّع لك.

قوله: «فيه» أي: في هذا المعنى ((لا توعي فيوعي الله عليك)) ؛ معنى قوله: «لا توعي فيوعي الله عليك» أي: لا تحصي المال عند النَّفقة ، والإنسان إذا أراد أن ينفق يبدأ بحسب، إذا الآن أنفقت هذا وكم يبقى وكم كذا الخ، ((لا توعي فيوعي الله عليك)) ، وهذا جاء في حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قلتُ يا رسول الله: «مالي مالٌ إلا ما أدخل الرُّبَيْرُ فَأَتَصَدَّقُ» ، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((تصدَّقِي ولا تُوعي فيوعي عليك))، وفي رواية: ((فيوعي الله عليك)) ؛ ومعنى «لا توعي» : لا تحصي ، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩] . لكن إذا كان الإنسان إذا رأى المحتاج الذي اشتدَّت به الحاجة لا يُخرج وإمَّا يقول: "أنا الآن معي كذا ، ولو أعطيته كذا لا يبقى لي كذا ، وأنا أحتاج" ، ويبدأ يعمل عمليات حسابية يفكّر هل يُخرج شيئاً من ماله لهذا؟ وربما يذهب الفقير المحتاج ولا يراه، وما زال يحسب هل يعطيه أو لا يعطيه؟ «لا توعي»: أي لا تحسب ، أنفق والله سبحانه وتعالى تكفّل لك بالخلف ، وسيأتي هذا الدُّعاء العظيم: «اللَّهُمَّ اعْطِ مُنْسِكًا تَلَفًا، وَأَعْطِ مَنْفِقًا خَلْفًا».

قال: كما في الحديث الآخر: ((ارضخي يُرْضَخ لكَ)) ؛ «ارضخي» هذا ضد «توعي»، ومعنى «ارضخي»: أنفقي، ابذلي، تصدّقي، أعطي. ((ارضخي يُرْضَخ لكَ)): أي يوسّع الله عليك؛ لأنّ من ينفق ويبدل في سبيل الله يأتيه الله سبحانه وتعالى بالخلف ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سأ: ٣٩].

قال رحمه الله :

٨٤ - وقوله عليه السلام: ((اللهم أعط ممسكاً تلقاً، وأعط منفقاً خلفاً)).

هذا الحديث جاء في الصّحيحين عن أبي هريرة أنّ النّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((ما من يومٍ يصبح العباد فيه إلاّ ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلقاً)) ، وهذه هي دعوة يوميّة من ملكين ينزلان كلّ يوم؛ فيدعو أحدهما بـ «اللهم أعط منفقاً خلفاً»، والآخر يدعو: «اللهم أعط ممسكاً تلقاً» ، وهي دعواتٌ مستجابات.

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يحرص أن يكون له نفقة يوميّة ولو شيئاً قليلاً؛ حتى يفوز بهذه الدّعوة، ولو شيئاً قليلاً فإنّ الله عزّ وجلّ يُخْلِفُ له هذا الذي أنفقه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ، ويفوز بهذه الدّعوة العظيمة المباركة «اللهم أعط منفقاً خلفاً». وأمّا الشُّحّ والبخل وعدم الإنفاق فإنّ الإنسان ينالُ به هذه الدّعوة من الملك: «اللهم أعط ممسكاً تلقاً» أي: لماله.

سبحانك اللهم وبمحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.